

(٣)

إنسان العصر بين الدين والعلم

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »
(سورة فاطر)

إنسان العصر يواجه اليومَ موقفَه العصيبَ بين الدين والعلم ...
بعد أن فجر الذرة ، وأنطق الصخر ، وتحكم في موجات الأثير
واقنحم عجاهلَ الفضاء ، وبعث رؤأده إلى القمر ...
وما يزال يتابع جولاته الظافرة ، لا يهدأ لحظة ولا يفتر ...
وأفاق طموحه تمتد وترحب ، بقدر ما يضيف إلى رصيده من جديد
الانتصار .

لكنه يزداد كذلك ، على عنفوان طموحه ومجد علمه ، تفكيراً في
مصيره المحتوم وراء رحلته العابرة في هذه الدنيا .
وإنه ليدري أن . المنايا رَصَدٌ ، للفتى حيث سَلِك . كما
قالت «أمّ السليك» الشاعر الجاهلي الصعلوك ، في عصر الناقة !
وإن جهل متى يَحِين الأجل ، وكيف ، وأين :
«وما تدري نفسُ ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفسُ بأيّ أرضٍ
تموت ،

...

ولا سبيل له إلى طمأنينة ، إلا أن يلوذ بالدين ، فيعطيه جواب ما
يسأل عنه : فيم كان هذا العناء ، ومقدورٌ على الإنسان أن يكدح إلى
مصيره الذي يَطْوِي كلَّ ما كان في غمضة عين ؟

والجواب الديني فيما تدبرنا من آيات كتاب الإسلام في الإنسان ،
واضح لا لبس فيه :

يموت المخترعون والرواد والمكتشفون ، من حيث هم أفراد من البشر
وتبقى ثمارُ جهودهم الباذلة ، ذخراً للإنسانية في عمومها المطلق .
ومن قبل مات الرسل جميعاً والأنبياء ، كما يموت سائرُ البشر وكل الكائنات
الحية .

وبقيت رسالاتهم مناراتٍ هادية على الطريق .
والدين في ترسيخه للإيمان بالحياة الآخرة ، يُعين الإنسان ، وهوالبشر
الفاني ، على مجاهدته الباسلة في سبيل الخير العام والقيم الباقية ، بما
يمنحه من الأمل في أن كفاحه في رحلته ليس عبثاً ، وأن حياته الدنيوية
المؤقتة ليست إلا ابتلاء لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانة إنسانيته ،
فيحميه بذلك من فكرة العدم المدمرة لإرادة الحياة .

لكن هذه الطمأنينة ، تتعرض لهزّاتٍ عنيفة من أثرِ الصدام بين العلم
والدين .

والحصومةُ بينهما قديمة عتيقة ، وكان المفروضُ أن يحسمها الإسلام ،
ختام الدين ، منذ نزلت آيةُ الوحي الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلقَ الإنسانَ من علقٍ . اقرأ
وربك الأكرمُ . الذي علم بالقلم . علم الإنسانَ ما لم يعلم . »
والعلم مناط تكريم الإنسان ، بل إنه كذلك ، فيما نتدبر من
آيات كتابنا ، من جوهر إنسانية الإنسان .

أقول ، كان المفروض أن الإسلام حسم الخصومة بين الدين والعلم ، بعد أن كبدت الإنسانية فادح الخسائر ، وعوّقت خُطّاها على مراقب تطورها (١) .

ولكن الواقع التاريخي ، يؤكد أن البشرية أعيها أن تصل إلى ما استشرف بها الدين له ، منذ أربعة عشر قرناً ، فتتابعت قرونٌ والصراع بين رجال اللاهوت ورجال العلم يخضب الساحة الكبرى للعالم البشري بدماء الضحايا والشهداء ...

وشهد القرن التاسع عشر توتراً حاداً في الخصومة بين المذهب المادي وبين الفلسفة المثالية والعقلية الكهنوتية . وقد بلغ التوتر مبلغ الأزمة ، عندما أعلن «ماركس» تفسيره المادي للتاريخ ، وبيانه الشيوعي سنة ١٨٤٨ . فهِزَّ صَرَخَ الكَهَنُوتِ بِمُحَدِّهِ الأديانَ . ثم لم تمضِ أعوام حتى نشر «دارون» سنة ١٨٥٩ ، كتابه «أصل الأنواع» فقدّمت نظريته في نشوء الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي ، تفسيراً بيولوجياً لما كان من اختصاص التأمّلات الفلسفية والغيبيات اللاهوتية . وقال قائلون بإمكان تفسير كل شيء في الكون بالمادة والقوة ، فاتسعت الهوة الفاصلة بينهم وبين رجال الدين إلى مدى جعل احتمال التفاهم أو التقارب عسيراً ، إن لم يكن متعذراً مستحيلاً ...

وازدادت الأزمة حدة وتعقّداً ، ولم يبق من رجاء إلا في أن يتمالك الإنسان رُشدَه واتزانَه بعد أن أخذَه دُورُ الإعصار ...

١- أقرأ في هذا : قصة الاسطهاد الديني ، للدكتور توفيق الطويل .

وهو رجاء بدا أشبه بسراب ، لكن الإنسانية تشبثت به تحت ضغط إدراكها الواثق بأنه إذا كان من المستحيل تصور إمكان تحقيق وجودها بغير العلم ، فمن المستحيل عليها كذلك أن تحيا بغير عقيدة !

...

وبزغ عصر الفضاء والأمل لا يزال بعيداً ، بل لعله أمعن موعلاً فيما يلوح منطقة سراب :

كثرة من رجال الدين وقفت بمعزل عن ذلك الاقتحام الجريء للمكوت السماء . ويحتاجها رعب غاضب كلما سمعت عن التجارب العملية لاكتشاف سر الحياة ، أو جاءها نبأ عن سفينة ماردة تنطلق من قاعدتها على الأرض مصعدة في عالي الفضاء ، آخذة طريقها إلى القمر أو الزهرة والمريخ ...

وفي الطرف المقابل المضاد ، تقف كثرة من أبناء العصر مبهورة بذلك الاقتحام الظافر ، وقد ألقت كل سمعها إلى أنفاس ملاحى الفضاء ورواد القمر . تسجلها أجهزة علمية على الأرض من صنع الإنسان ، ومدّت بصرها إلى مخابر العلماء حيث البحث الدائب المضني لكشف أخفى أسرار الكون والحياة .

...

فهل بلغ الموقف بنا حافة اليأس التي يصير التعلق فيها بجسم الصدام بين العلم والدين ، ضرباً من الغفلة الساذجة والوهم العقيم ؟ هل صارت الإنسانية إلى الحد الفاصل الذي يفرض عليها أن ترتد كافرة بالعلم أو كافرة بالدين ؟
كلا ...

فاليأسُ في حسابِ الحياة ؛ هزيمة .
والكفرُ بالعلم أو بالدين ، انتحار ...
وقد يبدو الأمل سراباً .

لكن الإنسانية تدرك ببصيرتها المرهفة أن السراب هو الذي يحجب الأمل .

وبإرادة الحياة فيها ، تتطلع إلى أن تعبّر منطقة السراب إلى أُمليها المحجوب وراءه ، في اقتحام لا يَقلُّ جرأةً وبسالةً عن اقتحامها آفاقَ الفضاء وغيابات المجهول .

ولأنها لتعي ، من واقع تجاربها على مسارٍ تاريخيها الطويل ، أن العداة ليس بين الدين والعلم ، وإنما هو في الحقيقة عداة بين رجالٍ من الفريقين ، ملأ الأفقَ بغبارِ المعركة فتاهت الرؤيةُ في النقع المثار ...

ذلك أن جوهر الدين ، لا يمكن أن يتصادم مع العلم ، إلا من سوء فهمٍ لجوهر الدين أو لطبيعة العلم . ومن وهم خاطيء ربطَ الإلحادَ بالأعجاد العلمية لروسيا الشيوعية ، مع أن البيانَ الشيوعي لكارل ماركس « المانيفستو » ينتمي بشهادة الواقع التاريخي إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وليس فيه أدنى إشارة طامحة إلى عصر التكنولوجيا أو تطلع إلى الملاحاة في الفضاء ولو بمثل « منطاد زبلن » .

والماركسية مذهب اقتصادي واجتماعي ، قام على نظرية التفسير المادي للتاريخ ، واتجه إلى تعميق الصراع الطبقي لسحق الاستغلال اللئيم للجهود العمال الكادحين ، وتدمير معاقل هذا الاستغلال ، سواء أكانت لرجال الكهنوت أم لطواغيت الأباطرة والقيصرة ، وجبايرة الإقطاع والرأسمالية ...

ولم يكن المذهب بحال ما ، دعوة إلى عصر التكنولوجيا أو نضالاً في سبيل شغل العلماء لمراكز السلطة ، بعد انتزاعها من برائن الطواغيت ومخدري الشعوب ومصاصي دماء العمال .

وأقطاب المذهب ، من ماركس وإنجلز ولينين إلى ماوتسي تونج ، لم يكونوا من المشتغلين بالعلم التجريبي ، في البيولوجيا والرياضيات والكهرباء والفلك والذرة ، الذين حقق بهم العصر انتصاره الرائع . . .

وإنما هم جميعاً فلاسفة مفكرون وقادة ثوريون لعصر يدعو إلى سحق الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي سادت عصور الحكم الاستبدادي والرق الجماعي والإقطاع الباغي والرأسمالية الضاربة . وإذا كانت روسيا الموحدة قد حققت - بعد قرن من بيان ماركس - سبقاً مجيداً باهراً في المجال العلمي ، فإن دولة أمريكية مسيحية محدثة تنافسها في هذا المجال ، ولم يقل أحد إن دولاً شيوعية كالألبانيا وبلغاريا والمجر ، أرقى علمياً من دول مسيحية كألمانيا وإنجلترا وفرنسا .

واستغلال الدين ضد طبيعته لتعطيل التقدم ، كاستغلال العلم ضد طبيعته لتدمير الحضارة وإهلاك البشر . وليس الدين مسئولاً عن التأويلات الفاسدة والأوهام التي تلبس الفكر الديني من الإسرائيليات الأسطورية والعقليات الكهنوتية ، كما أن العلم ليس مسئولاً عن نكبة هيروشيما ومعارك فيتنام والجزائر وكوبا وفلسطين ، التي تؤرق ضمير العصر .

وربط الإلحاد بالتقدم العلمي ، وهم لا يقل سذاجة وغفلة عن ربط الدين بالتخلف الحضاري والجمود العقلي والمخدرات التي سلطتها الكهنوتية على وجدان الجماعات في عصور المحنة بالرق والاستبداد والتخلف .

وفي منطق العقل لا يمكن تصوّرُ خصومة بين الدين في دعوته إلى الحق والخير ، وبين العلم في سعيه الدائب لتقدم الإنسان ؟

وفيم الكلام عن عدااء بينهما ، وقد قال الدين كلمته في ختام رسالته ، فبرّرَ بالعلم سجودَ الملائكة لآدم ، وجعل العلم قرين الإيمان ، وقصر خشية الله على العلماء لأنهم بما يتدبرون من عجيب آيات الحياة وسنن الكون ، يؤمنون بأن شيئاً من هذا لا يمكن أن يكون عبثاً باطلاً أو تلقائية عشواء .

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آياتٍ لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ... »

وحين كان الغرب الأوروبي يخبط في ظلماتِ عصوره الوسطى ، ويمتنح باضطهاد الكنيسة للعلماء وإلحاحها في مطاردتهم بالمحاكمات والطرْد والحرمان ، كان علماء الإسلام في العصر القيادي للحضارة الإسلامية ، ينطلقون في طمأنينة واثقة من تأييد عقيدتهم للعلم وإكبارها العقل ، فينظرون في الظواهر الكونية بعقلية جديدة متحررة ، ويمارسون التجارب العملية في المجال العلمي ، فقدموا جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ودخلوا التاريخ العلمي رواداً لآفاق لم يستشرف لها أحدٌ قباهم ، فكانوا هم الذين أصلوا المنهج التجريبي الاستقرائي ، وأعطوا الإنسانية أوليات الكتب العلمية في الطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والطبيعة والفلك والملاحة والجغرافيا ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة العملية والرصد الفلكي والخبرة الجغرافية

والملاحية : وبفضلهم تم نقل العلوم الطبيعية إلى مجال البحث التجريبي الذي لم تعرفه الفلسفة اليونانية بمنهجها العقلي النظري .

وكان رصيد خبرة العلماء المسلمين وتجربتهم وتراثهم العلمي ، نقطة الانطلاق إلى عصر العلم الحديث الذي حقق تقدماً باهراً في الغرب الأوربي ، بدأت خطواته الأولى من عصر الإحياء « الرينسانس » الذي قام أساساً على ما انتقل إلى الغرب من تراث الحضارة الإسلامية ، المتحررة من عقيدة الخصومة بين الدين والعلم .

وكذلك قال العلم كلمته ، أنقلها عن أستاذنا العالم الكبير « الدكتور محمد كامل حسين » ^(١) :

« لا محل للخلاف بين العلم والدين أبداً ... »

« ولا محل مطلقاً للحديث في هذا الخلاف ، ويجب أن يُسْحَى مما يتكلم عنه الناس في هذا العصر » .

. . .

ومن حق الإنسانية وهي تستقبل عصر ما بعد الوصول إلى القمر ، أن تتساءل عما يقدم العصر لسلامها النفسي بعد أن أرهقتها عقدة الانقسام بين المادية والمعنوية ، وأنهكها الصراع العقيم بين العلم والدين .

من حقها أن تتطلع إلى عصر جديد ، ينسخ ذلك الليل الطويل الذي لفها في دوامة الإعصار ، وترك في كيائها صدعاً غائراً لطول ما انحس عليه المعاول وأوغلت فيه السهام ، بحيث لم تعد المعركة بين فريق من أبنائها وفريق ، وإنما انتقلت إلى صميم الإنسان فرداً ، فإذا هو مضغوط بين المادية

١- في محاضراته عن « الإيمان بالعلم » بجامعة عين شمس ، فبراير ١٩٦٣ ، وقد طبعتها مطبعة الجامعة .

بجبروتها العاتي ، وبين معنوياته التي تحتكم فيه بسلطانها القاهر ، وتتحدى كلّ التفسيرات التي يقدمها الماديون ، وتعصّي على كل الحلول التي يصلون إليها . . . »

وإن الإنسانية لترفض أن يُظّلها عصر يدعى جديداً ، وفيها هذا الصّدْعُ الغائر يمزق أبنائها شيعاً وأحزاباً بعضهم لبعض عدو ، ويمزق كيان الإنسان بالحيرة المضنية والشكّ المدمر ، إذ تتجاذبه التيارات المضادة ، فبعضه لبعض عدو !

والعصر الذي يقدم لها عباقرة العلماء ومهرة الأطباء ونوابغ المفكرين ، ويمنيها بالتعاشيس السلمي والعدالة الاجتماعية ، ويضرب لها موعداً قريباً مع المريخ . . .

لا بد أن يقدم لها مع ذلك كله ، إن لم يكن قبل ذلك كله ، طبّ النفس والروح ، ويعدها بالبرء من عُقَدِ الانقسام في الشخصية مادية ومعنوية ، ويمنحها الاتزان بين جاذبية الأرض التي تمتد فيها جذور الإنسان موهلةً في أعماق الزمان ، وبين تلك الآفاق العليا لمناطق انعدام الجاذبية !

• • •

وإنسان العصر قد يبهره الاقتحام الظافر للكونوت السماء ، وتُخابله رؤيا التحرر من جاذبية الأرض ، فيحسب أن المعركة التي طالت ، سوف يحسمها الغدُ بما يحمل من جديد انتصار للعلم ، ومن ثمّ يتصور أن الإيمان بالعلم هو البديلُ العصري للإيمان بالدين . . .

لكن الإنسانية شهدت في ماضيها القريب ، تجربة إحلال « بديل » خر للدين ، فلم تزدها إلا تصدعاً وتمزقاً .

تلك كانت تجربة الشيوعية في مقاومتها لما سمّته « أفئون الشعوب »
ومحاولتها أن تحرر الإنسان من سلطان العقيدة ، ليخضع تماماً لسيطرة
المذهب .

ومضى على تلك المحاولة قرن وبعض قرن ، فما استطاعت أن تعطي
عن العقيدة بديلاً .

واكتشف العصر ، إلى جانب ما اكتشف من أسرار الكون ،
وجيولوجيا القمر ، أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في فراغ من
العقيدة ، وأن أي جديد من النظم والمذاهب مهدد بالخطر ، إذا
ظل يتجاهل هذه الحقيقة الإنسانية التي تقرر أن الإنسان ليس مادة
فحسب ! وهو قد يعيش في ظل أحدث النظم وأفضل الأوضاع ،
وعالمه النفسي مشحون بعواطف ونوازع لا تستجيب لأي تفسير مادي ،
وجوده محكوم بأسرار خفية معقدة لا تحلها أدق المعادلات الرياضية .
قرن كامل ، ليس وقتاً قصيراً في امتحان وتجربة ...

والقياس الزمني للقرن العشرين ، لا بد أن تدخل فيه الأبعاد الترامية
لعصرنا ، في جراءة اقتحامه وسرعة تقدمه وامتداد آفاقه ...

• • •

وعلى الأفق الرحب لعالمنا الجديد ، بدأت تلوح بوادر الوعي المدرك
لعدم أي محاولة لإحلال بديل عن العقيدة الدينية .

إيداناً بعصر جديد ، يمنح الإنسان سلامه النفسي ويرحمه من
ضغطة الانسحاق بين العقيدة والمذهب .

والراصد لهذه البوادر ، لا يفوته أن يتتبع ظهورها منذ عام ٩٥٨ ،

حين أوفد « الفاتيكان » بعثة سلام من كبار رجال الدين ، في زيارة رسمية للاتحاد السوفييتي ، حيث اجتمعوا بوزير الخارجية « أندريه جروميكو » وتم الاتفاق على العمل المشترك من أجل السلام .

وفي شهر أبريل من عام ١٩٦٦ ، استقبل « البابا بول السادس » جروميكو ، أثناء زيارته لإيطاليا .

وحملت أنباء شهر سبتمبر من العام نفسه ، خبراً من مفاوضات تجري في براج ، بين « الكاردينال فرانز كوينج » ممثلاً للبابا ، وبين حكومة تشيكوسلوفاكيا ، لإعادة العلاقات الدبلوماسية بعد قطيعة عشرين عاماً . وهذه المفاوضات يحدوها أمل كبير في النجاح ، بعد أن نجحت جهودٌ سابقة مع المجر ويوغوسلافيا ، في قبول حق الكنيسة في التوجيه الديني لرعاياها الكاثوليك في الدول الشيوعية ، دون أن يتعارض ذلك مع السلطة السياسية .

ومثل هذه البوادر لا تعطي دلالتها الحقة ، على تطور الموقف بين الدين والشيوعية ، إلا إذا ربطناها بوصية الزعيم الراحل للحزب الشيوعي الإيطالي « بالميرو تولياني » وقد ألح فيها على ضرورة تقدير الحزب للواقع الإيطالي الذي يغلب عليه الطابع الديني . ونصح باتقاء تعارض الحزب مع الدين ، لكي يستوعب أكبر عدد من الإيطاليين !
و « بالميرو » يتكلم عن تجربة وملابسة للواقع .

ومن قبله تكلم « برنارد شو » عن تأمل فكري حينما قدم قصته (البربرية تبحث عن الله) فعجب لسذاجة المحاولة للتخلص من الدين ، وصرح بأنه لم يشعر قط بنفور أو ندم على تربيته الدينية « لكننا نجحد

هذه النعمة فنخلط مُثُل الدين العليا وعطاءه السخي ، بأوهام مفسريه
وسخافات دُعائه . واشتهرت عبارته المأثورة :

« إن دراسة تاريخ الأديان تصف لنا تطورَ الوجود من العبادة
الوحشية الخشنة الجافية إلى المعنوية المهذبة المرهقة . وقد كانت كل
مرحلة من مراحل التطور الديني تمضي بالإنسان خطوة إلى تصور الطبيعة
في صورة أنبل وأعمق . وكان حقاً على البشرية كلما وصلت إلى نبع
أنقى ، أن تنظف أوعيتها تماماً قبل ملئها بالماء الصافي . لكننا نُفسدها
جميعاً بكسَلنا المعهود ، فنصب ماء النبع الجديد على ما في دلوينا القذر
من ماء عكر ، ثم نظل نكرر الحماقة فتضيف إلى الدلو أوهام الشراح
وسخافات المبشرين ، مما يجعل عقولنا وعاءً لخليط قذر يجعلنا عرضة
لسخرية الملحدّين الذين لا يشغلون أنفسهم ، وإن كانوا سُدّجاً ، بمثل
تلك التعقيدات المربكة والأوهام السخيفة » .

ومضى « شو » قبل أن يصطدم زعماء الشيوعية بالواقع الصارم ،
ويواجهوا أزمة الفراغ العقيدي الذي حاولوا عبثاً أن يملأوه بتعاليم مذهب
اقتصادي اجتماعي ، وأفضى بهم اليأس إلى أن يجعلوا من بعض
قادتهم آلهة معبودة على الأرض ، لعلها تُلبّي ما في وجدان الجماهير
من نزوع فطري راسخ ، إلى التعبد !

ومضى « بالميرو » تاركاً وصيته وثيقة تاريخية تصكّ سمع الملاحدة
وتحذرهم من خطر اصطدام المذهب بالعقيدة الدينية !

بحيث لا أستبعد أن يكون التطور المنتظر للشيوعية ، هو التراجع عن
موقفها ضد الدين .

ولنمض في عداؤها لمن يستغلون الدين ضدَّ طبيعته لتعطيل التقدم ،
ويزعمون لأنفسهم سلطة كهنوتية يمارسون بها هذا الاستغلال ، أو
يتحلون حقاً إلهياً مزعوماً يتسلطون به على وجدان الجماهير .

» * «

ومن رصيد هذه التجربة الواقعية ، في فشل إحلال المذهب بديلاً
للعقيدة الدينية ، ترنو الإنسانية إلى عصرها الجديد بمزيد من
الوعي المرهف ، والأمل الطامح في أن يعفيها العصر من مكابدة
الصدام العقيم بين الدين والعلم ...

ذلك يومَ يدرك رجالُ الدين والعلم ألا تعارض إطلاقاً بين الإيمان
بالدين والإيمان بالعلم ، فليس أحدهما بالذي يناقض الآخر أو يجور
عليه ، بل بمضيان معاً على الطريق لخير الإنسانية في عمومها المطلق ،
ويحدوان خطواتِ البشر الثاني على معبر الدنيا ، كي يحقق كمالَ إنسانيته
فيترك للحياة من بعده ما ينفع الناس ...

« إن في ذلك لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ
قَلْبٌ أَوْ فِئْءَى السَّمْعِ وَهُوَ شَهِيدٌ »
صدق الله العظيم

الإنسانُ والقَمَرُ

« كَلَّا وَالْقَمَرَ • والليلِ إذا أدبَرَ •
والصبحِ إذا أسفر • إنها لإحدى الكُبَر •
نذيراً للبشر • لمن شاء منكم أن يتقدمَ
أو يتأخر »

(سورة المدثر)

قصة الإنسان والقمر لم تبدأ في هذا العصر ، وإنما كان الوصول إلى القمر مرحلة ظافرة ومجيدة ، لرحلة طويلة بدأت من ماضٍ موغل في القدم ، وتتابعت مراحلها على امتداد الزمان والمكان ، من العصر البدائي إلى عصر ارتياد الفضاء وغزو القمر .

في الماضي السحيق ، قبل التاريخ ، تطلع الإنسان البدائي إلى القمر في أفقه العالي ، مبهوراً بسنا نوره البهي ، يهديه في متاهة الظلام من قبل أن يعرف ضوء النار .

ودون أن يدري شيئاً ما عن دورة الفلك ، كان القمر مناره الهادي . يطيل النظر إليه فلا يعشى بصره من نوره ، كما يعشى من طول التحديق في ضوء الشمس الساطع . وكأنما خُيِّل إليه أن النهار بطبيعته مضيء ، فليس يحتاج فيه إلى دليل كما يحتاج بعد مغيب الشمس :

الشمس معه دائماً في كل نهار ، من مطلع الصبح إلى المغرب . وليس كذلك القمر : كل شيء في غيابه يطويه الظلام ، حتى تعود الليالي المقمرات . ومهما يتفاوت ضوء النهار ما بين شروق وغروب ، ففيه الكفاية . أما حين يتأخر القمر أو يغيب ، فلا هادي ولا دليل . وعلى الإنسان أن ينتظر مولد هلاله في لهفة وترقب ، ليحميه من غوائل الليل ويؤنسه في دياجير الظلام .

وطاب له السمر على نوره ، كما أُمِنَتْ خُطاه في ليلاليه النيرَات .
وبهره جمال القمر ، فأخذ اسمه لأجمل الفتيان : « قمر الزمان »
الجلدير بعشق « ست الحسن والجمال » .

ومن عَجَب أن الإنسان في متاهة بدائيته الأسطورية ، تطلع إلى
اقتحام الجو ، وتشبث أحلامه بخاتم سحري يلسمه بإصبعه فيخرج له
عفريت من الجن يقول له في خضوع :

« لبيك لبيك : عبدك وملك بديك »

فيسخره في تلبية أمانيه العصية وتحقيق أحلامه المستحيلة . ويحمل
قمر الزمان على بساط الريح عبر المسافات الشاسعة ، إلى حبيبه .

ولفرط إعجاب الإنسان البدائي بحُسن القمر وجماله ، تصوّر أن
بنات الحور يعشقنه ويتنافسن عليه فيختنق من إحاطتهن به وأسرهنَّ
إياه . وما يزال تراثنا الشعبي يحمل أثر ذلك التفسير الأسطوري لحسوف
القمر ، حيث يخرج صَبِيئُنا في الريف والبادي إلى العراء ، يَدُقون
الطبولَ على إيقاع أغنية ضارعة إلى بنات الحور أن تفك أسر القمر :
• سَيِّبِيه يا بنات الحور •

• • •

ومن عصر ما قبل الطوفان ، لفتت الرسائل الدينية الأولى إلى أن
هذا القمر آية من آيات الخالق جل جلاله ، ونعمة من نعمه على
خلقه . وتلا علينا القرآن من دعوة « نوح » لقومه :

« ثم إني دعوتُهم جِهاراً • ثم إني أعلنت لهم وأسررت

لهم لإسراً • فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً • يُرسل

السماءُ عليكم مداراً • ويُمَدِّدُكم بأموالٍ وبنين ويجعلُ
لکم جناتٍ ويجعلُ لکم أنهاراً • ما لکم لا تَرجُونَ لله
وقاراً • وقد خلقکم أطواراً • ألم تروا كيف خلق اللهُ سبعَ
سماواتٍ طباقاً • وجعلَ القمرَ فيهن نوراً وجعل الشمس
سراجاً • والله أنبتکم من الأرض نباتاً • ثم بُعِدکم فيها
ويُخرجکم إخراجاً • والله جعل لکم الأرضَ بساطاً •
لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً • قال نوح ربُّ إنيهم عَصَوْنِي
واتبعوا من لم يَزِدْهُ ماله وولده إلا خساراً ومكرراً كُباراً •
وقالوا لا تذرُنَّ آلهتَکُم ولا تذرُنَّ وداً ولا سواعاً • ولا
يَعْقُوثَ وَيَعْقَوقَ وَنَسْرًا»
(نوح : ٨ : ٢٣)

ومضى قوم نوح ، وخلقوا ميراثهم من عبادة الأصنام .

• • •

وفي عصور الوثنية الغابرة ، لم يستطع الإنسان أن يعيش في فراغ
من العقيدة ، فظل يلتمس إلهاً يعبدہ ويُجسِّدُ فيه ما بقى في الضمير
البشري من فكرة غامضة عن الإله الذي دعا إليه الرسل من عهد
آدم ونوح . فكان القمر من أقرب الآلهة المعبودة ، وقد رأى إليه
أسلافُ لنا رمزاً لجلالِ الألوهية وفيقصرِ نورِها وكرمِ عطائها ،
فعبدوا « إلهة القمر » في وديان النيل والرافدين والسند ، قبل
عصر الأديان الكبرى . كما عبُدت الشمس والكواكب ، لما بهر عابديها
من ضوئها الساطعِ وعلوها الشاهق الذي يقصرُ دونه البصرُ ويتعيا الخيال .
وفي ضمير الإنسان ، كان يكمن قبح من الوعي يريه أن تتعدد
الآلهة المعبودة ، فأبها الإله الأكبر ؟

وكما رابه من أمر الأصنام الصماء البكماء ، أنها من صنع عابديها ،
ولا يجوز عقلاً أن تكون الأرباب من صنع خالقيها وعابديها ؛
رابه كذلك أن تنطفئ الكواكب وتأفل ، وتُكسَف الشمس وتغرب ،
ويُخسف القمر ويغيب في المحاق . ولم يقنعه التفسير الأسطوري بعشق
بنات الحور للقمر وأسرهن إياه ، لا يطلقنه إلا بالتوصل والضراعة .

أيكون القمر إلهاً معبوداً وتخفقه بنات الحور وهن من عباده ؟ ثم ،
من يأسر الشمس وسائر الكواكب ؟

ذلك أمر مريب ، من حيث لا يجوز على الآلهة الخسوف والكسوف
والأفول ، أو أن يأسرها أسر إلا إذا كان أقوى منها !

ومثل هذا القبس من الوعي القليق المرتاب ، لا يصح عادة لعامة
الناس . بل ليس من شأنه كذلك أن يصح لكثرةٍ منهم . وإنما
يكفي أن يتوهج في بصيرة فرد منهم ، يمثل الضمير البشري في أرهف
حساميته التي تحتملها ظروف كل عصر ، وعقلية أهله .

وقد كان « إبراهيم » في عصر الوثنية ، هو الذي صح له هذا
الوعي الملتهم ، فيما نعرف من تاريخنا الديني ، فمضى يطوف ببصره
وبصيرته في آفاق الكون حوله ، قلقاً مرتاباً ، يلتمس إلهاً بمعبده خيرَ
تلك التماثيل الخرساء البلهاء التي وجد أباه وقومه لها عابدين .

ويقص علينا القرآن الكريم ، فيما يقص من أمره ، تردده الحائر
بين هذه الأجرام النيرات العليا ، وطول تأمله فيما يعترها من أفول
مريب :

« وإذ قال إبراهيمُ لأبيه آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أراك وقومك في ضلالٍ مبين . وكذلك نُرِي ابرهيمَ ملكوتِ السمواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين . فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أَفْلَ قال لا أُحِبُّ الآفِلِينَ . فلما رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربي ، فلما أَفْلَ قال لئنْ لم يَهْدِنِي ربي لأكوننَّ من القومِ الضالين . فلما رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربِّي هذا أكبرُ ، فلما أَفْلَتْ قال يا قوم إِنِّي بريء مما تشركون . إِنِّي وجهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجته قومه ، قال أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . وكيف أَخَافُ مَا أَشْرَكْتَهُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ (الأنعام ٧٤ : ٨١)

• • •

واهتدى من البشرية إلى حين ، مَنْ بلغتهم دعوة « إبراهيم » والتفتوا إلى القمر والشمس والكواكب ، من آيات القدرة الإلهية . فاهتدوا بعد طول تأمل ، إلى قياس الزمن وضبط المواقيت والفصول الموسمية ، على علامات ترشدتهم في اتجاه سيرهم ومسراهم ، في البر أو البحر ، من قبل أن تعرف الدنيا أي جهاز للرصد الفلكي أو البوصلة .

• • •

لكن البشرية المتدنية بدين ابراهيم ، ما لبثت بعده في فترة من
الرسول ، أن عادت إلى ضلالها القديم . ونعرف من التاريخ الديني
أن عبادة الشمس كانت دين سبأ ، من العرب البائدة ، إلى
أيام « سليمان بن داود » فيما جاء بالقرآن عنها من نبأ يقين :

« فمكث غيرَ بعيدٍ فقال أحطتُ بما لم تُحِطْ به وجئتُك من
سبأٍ نبأً يقين . إني وجدتُ امرأةً تملكهم وأوتيتُ من كلِّ شيءٍ
ولها عرشٌ عظيم . . وجدتُها وقومُها يسجدون للشمس من دونِ الله -
وزين لهم الشيطانُ أعمالَهم فصَدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون »

(النمل ٢٢ : ٢٤)

وإلى قريب من مبعث خاتم النبيين ، عليه الصلاة والسلام ، كانت
هناك في العرب بقية لا تزال من عبادة الشمس والقمر ، بشاهدٍ من
آية « فُسِّلَتْ » :

« ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ ، لا تسجدوا
للشمسِ ولا للقمرِ واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه
تعبدون » - ٣٧

ونفهم من نص الآية ، أن بقية من الوعي كانت تكمن أيضاً
في ضمير عبدة الشمس والقمر ، يلمحون فيهما الخالق المعبود ،
فيسجدون لهما عن وهمٍ أنهم : « إياه يعبدون » .

كما تشهد بهذه اللوحة المضيتة ، آية « العنكبوت » والخطاب فيها
لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :

« ولتين سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس
والقمر ليقولنَّ اللهُ ، فأني يؤفكون » - ٦١

ولقد نسخ نورُ الإسلام عبادة القمر فيما نسخ من ظلمات الوثنية الجاهلية ، لكنه لم يفض من شأد القمر ولا الشمس . تقديرًا لنعمة عطائهما من النور والضياء . وحساب الزمن ومواقيت المواسم . كما أبقي للنجوم تقدير الاهتداء بها ، علاماتٍ للسير والسرى ، في ظلمات البر والبحر :

« هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عددَ السنين والحسابَ ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . »

(يونس : ٥)

« فالقُ الإصباح وجعلَ الليلَ سكناً والشمسَ والقمرَ حُسباناً ، ذلك تقديرُ العزيزِ العليم . وهو الذي جعلَ لكم النجومَ لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآياتِ لقومٍ يَعْلَمُونَ . »

(الأنعام : ٩٦ : ٩٧)

• • •

وإذا كان العرب قبل الإسلام ، قد ربطوا بدورة القمر مواسمهم الدينية ومواقيت حجّهم والأشهر الحُرُم التي لا يحلُّ فيها قتال ، فإن القرآن أضفى على القمر جلالاً وحرمة ، حين جعل منه المقياس الزمني لمواقيت فريضة الصيام (البقرة : ١٨٥) والحج (البقرة : ١٩٧) والأشهر الحُرُم : (البقرة : ١٩٤ ، والمائدة : ٢ ، ٩٧ والتوبة : ٥) كما ضبّطت به في الشريعة الإسلامية ، كل الأحكام التي تتعلق بوقت وزمن ، مثل حلول عيد الفطر ، ومواعيد الزكاة ،

وحيثما ذُكر الشهر في آيات الأحكام ، كالكَفَّارة بالصَّيام ، وأشهرُ الإِيلاءِ والعِدَّةِ^(١) . فهو الشهر القُمري . كما يأتي شهود الشهر في القرآن ، مراداً به شهود الهلال من شهر القمر :

« شهرُ رمضانَ الذي أنزلَ فيه القرآنُ هدىً للناسِ
وبيِّناتٍ من الهدى والفرقانِ ، فمن شهدَ منكم الشهرَ
فليَصُمْهُ . »
(البقرة : ١٨٥)

• • •

وأقف هنا لأتدبر ما يُقدِّم التاريخ الديني ، في ختام الرسائل ، من بيانٍ لتطور البشرية ومدى ما أُتيح لها من إدراكٍ لآية القمر :

في عصر ما قبل الطوفان ، اقتصرت دعوة نوح فيما يتعلق بالقمر ، إلى عطاء نوره فحسب ، ولا عهد للبشرية إذ ذاك بالحساب وضبط دورته الزمنية للوقت ، كما لا عهد لها بمعرفة نظام دورة الفصول ، ولا كانت قد ركبت البحر قبل السفينة الأولى ، فلَّك نوح ، لاحتِاج إلى علاماتٍ من النجم تهدي طريقها في ظلمات البحر . ذلك كله مما لم يُتَّح للبشرية معرفته ، قبل أن يصنع « نوح » الفلك بأمر ربه ، وينجو ومن معه من الطوفان الذي اكتسح الكفار الذين « جعلوا أصابهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم » لا يسمعون ما يلفتهم إليه رسولُ ربهم من آياته تعالى في : السموات طباقاً ، والقمر فيهن نوراً ، والشمس سراجاً ، والأرض بساطاً ...

١ أنظر في الكفارة بالصيام ، آيات : النساء ٩٢ والمجادلة ٣ وفي الإيلاء والمدة . آيات البقرة ٢٢٦ : ٢٣٤ ، والطلاق ٤ .

في عصر نزول ختام الرسالات ، كانت البشرية قد تطورت على المدى الطويل ، ما بين قبل الطوفان إلى أوائل القرن السابع لميلاد المسيح عليه السلام ، فتعلمت الحساب ، وضبطت التقويم السنوي ، وحددت مواعيد الفصول الموسمية ، وركبت البحر مهتدية بعلامات من الأجرام في أفلاكها العليا ...

فصحَّ لها بما تعلمت من ذلك كله ، أن تدرك آيات القدرة الإلهية في القمر والشمس والنجم ؛ حساباً وعلامات هادية في ظلمات البر والبحر : « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » .

بل صح لها من رشد الوعي وزاد المعرفة ، أن يلفتها القرآن إلى ما تستطيع أن تدرك بالتفكير والتأمل ، من عجيب آية الشمس والقمر ، في إحكام النظام الكوئي ، واطراد قوانينه وثبات سننه :

« الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مُّسمًى ، يدبر الأمرَ يفصل الآياتِ لعلكم بقاء ربكم توقنون . وهو الذي مدَّ الأرضَ وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً ومن كلِّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشي الليلَ النهارُ ، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون . »

(الرعد ٢ ، ٣)

« خلق السموات والأرضَ بالحق يُكورُ الليلَ على النهار ويكورُ النهارَ على الليل وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مُّسمًى ، ألا هو العزيز الغفار »

(الزمر : ٥)

« وما يستوى البحرين هذا عذبٌ فَرَاتٌ سائغٌ شرابه وهذا
 مِلْحٌ أجاجٌ ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حليةً
 تلبسونها وترى الفُلُكَ فيه مواخيرَ ليتبتغوا من فضله ولعلكم
 تشكرون . يولجُ الليلَ في النهارِ ويولجُ النهارُ في الليلِ وسخِرَ
 الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجلِ مُسمى ، ذلكم ربُّكم له
 المُلْكُ ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . »
 (فاطر ١٢ : ١٣)

ومن حيث لا يرتاب متدين في أن الأمر كله للمشئمة الإلهية ، وأن
 في قدرته تعالى ، لو شاء ، أن يتغير كل هذا النظام الكوني المحكم ،
 يقرر الدين في ختام رسالاته ، أن مشئمته تعالى لا يتعلق بنقض سننه :

« سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرضُ
 ومن أنفسهم وما لا يعلمون . وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منه
 النهارَ فإذا هم مُظلمون . والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلك
 تقدير العزيز العليم . والقمرَ قدرناه منازلَ حتى عاد كالعُرْجونِ
 القديم . لا الشمسُ ينبغي لها أن تدركَ القمرَ ولا الليلُ
 سابقُ النهارِ ، وكلٌّ في فَلَكَ يَسبحون »

(يس ٣٦ : ٤٠)

وبقي من سر القمر ، ما كان يغيب عن البشرية كلها في عصر
 نزول القرآن . ولقد بدا لبعضهم أن يسألوا خاتم النبيين عليه الصلاة
 والسلام ، عن كُنْهِ الأَهْلَةِ في دورتها العجيبة المطردة ، ما بين
 بزوغٍ وبدٍ ومحاق . فلم ير القرآنُ لهم أن يتعلقوا بما لا سبيل لهم

إلى إدراكه وعلمه ، من سير الأهله وكُنْهها . ولم يكن عصر العلم التجريبي قد بدأ بعد ، ولا كان في طاقة البشرية أن تدرك أسرار الفلك إلا أن ترجم بالظن أو تخوض في غيابة الميتافيزيقا . والعقل الإنساني ، حتى عصر نزول القرآن ، لم يكن يعرف من علم الفلك إلا تصورات ذهنية اختلط فيها السحرُ البابلي بالتأملات الميتافيزيقية لكهنة الفراعنة وفلاسفة اليونان ، والإشراق الصوفي لروحانيي الهند والصين .

والقرآن في ردّه على من سألوا عن الأهله ، صرفهم عن التعلق بما لا سبيل لهم إدراكه وعلمه ، إلى ما يُجدي عليهم من ظاهر آيتها :

« يسألونك عن الأهله قل هي مواقيت للناس والحج . »

(البقرة : ١٨٩)

فأعفاهم بذلك ، من الرجم بالظن بغير علم .

ونتعلم في دراسة مناهج المعرفة ، أن الإنسان لم يدخل عصر العلم الحديث إلا منذ أن تخلّى عقله عن غروره القديم ، واتجه إلى دراسة خواص العناصر وقوانين الظواهر الطبيعية ، بدلاً من النظر المبدد فيما لا يدري من كنهها وأسرارها ، على نحو ما غرّ فلاسفة اليونان من معارفهم الفلكية التي حسبوها علماً ، وليست سوى تصورات ذهنية وفروض عقلية . ونفلها لا يدخل في مجال « العلم الحديث »

كما لم يدخل الظن في الغيبيات ، في حساب العلم ، بكتاب الإسلام الذي جاءتنا آيته منذ أربعة عشر قرناً :

« وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن

لا يُغني من الحق شيئاً »

(النجم : ٢٨)

• • •

لم يكن عطاء القمر للوجدان الإنساني ، دون عطائه لحياته العملية
ومنطقه العقلي :

من قديم كانت صحة الإنسان للقمر ترهف من خياله وتحلق
برؤياه في أفق رجب ، وراء المنظور والمحسوس ، وفوق حدود واقعه
الأرضي حيث يأخذ القمر ، وكذلك الشمس والكواكب ، معاني رمزية
ودلالات إيمائية ، كالتّي نعرفها في رؤيا يوسف إذ قال لأبيه يعقوب :
« يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتُهم لي
ساجدين »

(يوسف : ٤)

وتتحقق الرؤيا بعد أن نال الخطوة لدى ملك مصر فاستخلصه لنفسه
واستجاب له فجعله على خزائن الأرض الطيبة ، ومكّن الله بذلك ليوسف
فيها ، يتبوأ منها جيث شاء ، فجاء إخوته من البادية يلتمسون الميرة ،
ثم جاء أبواه :

« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبتِ
هذا تأويلُ رؤيائي من قبلُ قد جعلها ربي حقاً ... »

(يوسف : ١٠٠)

في هذه الرؤيا ، لم تكن الكواكب والشمس والقمر بدلالاتها اللغوية
في أصل استعمالها ، بل خرجت عنها إلى دلالة مجازية ، رمزية ملهمة .

مثل هذا الإيحاء الملهم ، كان المنطلق الرجب الذي أثرى اللغة ،
من عصر الجاهلية ، ألفاظاً وبياناً .. وجمال فيه الأدب العربي متفتناً في
صور التعبير الوجداني بفن الكلمة : تشبيهاً واستعارة وتمثيلاً وعجازاً
وكناية ورمزاً .

وقد نقل « ابن هشام » في السيرة النبوية ، من نشيد الأنصار في
احتفالهم باستقبال المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في دار هجرته :

طلع البدر علينا من ثنياتِ الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ونقل معه ، رؤيا للسيدة « صفية بنت حُبيّ » استرجعت ذكرها
يوم اصطفاها الرسول عليه الصلاة والسلام لنفسه ، بعد النصر على قومها
يهود بني النضير . قالت إنها كانت في مستهل الهجرة ، قد رأت في
منامها كأن القمر نزل من السماء ووقع في حِجرها : وقصت رؤياها
على زوجها الأول - سلام بن مشكم ، من رءوس يهود نضير -
فلطمها على وجهها وقال لها :

« ما أرى إلا أنك تُمتنين ملكَ العرب زوجاً »

• • •

وأرهدف التأمل خيال الإنسان ، فرأى نفسه في هذه المرأة الضوئية
العجيبة :

في الهلال البازغ ، رأى بدء دورة الحياة حين تفتح واعدة بالنمو
والإشراق والعطاء .

وفي البدر المنير ، رأى ذروة التجلي وقمة الصعود واكتمال التألق ،
قبل لحظة التحول إلى هبوط وانحدار .

وفي وحشة المحاق ، رأى أقول الحياة ونهاية دورتها إلى مغيب ..

واتسع الأفق أمام وجدانه الملهم بإحياء القمر ، فرأى في مولد
الهلال إيذاناً بمشرق نورٍ في الظلمة ، ومطلع فجر جديد ينسخ ليلاً
قبله .

ومن هذا الملحظ ، كان « الهلال » شعار الأمة الإسلامية على
تتائي الديار والأقطار وتباعد الأجيال واختلاف العصور .

كما ربطت الرؤية الوجدانية للقمر ، بين المحاق وتسلط الشر والقبح
والباطل ، وعربدة شياطين الظلام .

دون أن يضيع الأمل في دورة تالية ، يبرز فيها النور فيمنح الإنسان
فرصته لاكتشاف دربه في الحياة ، وتخوض معركته الباسلة ضد أعداء
النور والحياة .

وعلى طول الزمان ، طاب للإنسان السهرُ مع نور القمر وطاب
السر ، فكان مجمع الأحباب وملتقى الأصحاب ، كما كان أنيس
المسكين ورفيق المقترين وسمير المحبين ، يثونه مواجعهم ومواجدهم ،
ويرفعون إليه نجواهم ويُفضُّون إليه بأسرار قلوبهم ، ويحملونه رسائلهم
إلى الأحباب كلما نأت بهم الديار وشطَّ المزار ...

وأصغت دنيانا في المشرق والمغرب ، إلى نبض قلوب شعرائنا وقد
شجأها القمر فذابت وجداً وحنيناً . وطوى الثرى من طوى منهم ، وما

يزال صدى صوتهم يطربنا ويُسجينا عبر الآماد والأبعاد ، فنتفنى بموشح
الشاعر الأندلسي :

ما لعيني عَشِيَتْ بالنظرِ أنكرتُ بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبري عَشِيَتْ عيناï من طول البكا
وبكى بعضى على بعضى معي

ونأسى « لابن زريق » إذ يودع الدنيا في غربته وهو يرنو إلى
القمر ويذكر به قمرأ ودَّعه في بغداد ، يوم لم يكن يدري أنه الوداع
لا لقاء بعده في هذه الدنيا :

لا تعذليه فإن العذلَ يُولِعه
قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزتِ في لومِهِ حدّاً أضرتْ به
من حيث قدَّرتِ أن اللومَ ينفعه
فاستعلمي الرفق في تأنيبه بدلاً
من عنفه فهو مضني القلب موجعه
أستودع الله في بغدادَ لي قمرأ
بالكرخ من فلك الأزارار مطلعه
ودَّعته وبودي لو يودعني
صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشبث بي يومَ الرحيل ضحى
وأدمعي مستهلات وأدمعه

وكم تشفع أني لا أفارقه
وللضرورات حال لا تشفعه

وأنشدت محافل الذكر جيلاً بعد جيل ، مواجد الصوفية في رؤاها
الملهمة بسنا القمر ، من مثل نجوى شاعرهم « ابن الفارض » :

والتي يعنو لها البدر سبّت
عنوةً روعي ومالي وحمي
عدتُ مما كابدتُ من صدها
كبدي حلفُ صدّي ، والجفنُ ري
يا ليالي الوصل هل من عودة
ومن التعليل قولُ الصبّ : أي
وبأيّ الطُرق أرجو رجعها
ربما أقضي وما أدري بأيّ
ذهب العمر ضياعاً وانقضى
باطلاً إن لم أفز منك بشي

وتملّ الذاكرون من دفع النشوة ، على رجع النشيد الفارضي :

شربنا على ذكر الحبيب مُدامةً
سكّرنا بها من قبل أن يُخلق الكرمُ
لها البدرُ كأسٌ وهي شمس يديرها
هلال ، وكم يبدو إذا مُزجتْ نجمُ
ولولا شداها ما اهتديت لحانيها
ولولا سناها ما تصوّرها الوهمُ

فإن ذُكِرَتْ في الحَيِّ أَصْبَحَ أَهْلُهَا
 نَشَاوَى ، وَلَا عَارَ عَلَيْهِمْ وَلَا لَائِمُ
 وَلَوْ خُضِبَتْ مِنْ كَأْسِهَا كَفُّ لَامَسِ
 لَمَّا ضَلَّ فِي لَيْلٍ فِي يَدِهِ النِّجْمُ
 وَقَالُوا شَرِبْتَ الْإِثْمَ ، كَلَّا وَإِنَّمَا
 شَرِبْتُ الَّتِي فِي تَرْكِهَا عِنْدِي الْإِثْمُ

• • •

وَرَجَعْتَ أَغَانِيَنَا شَدُوَ الْمَطْرِبِينَ بَنَجَوَى الْعِشَاقِ لِلْقَمَرِ : مِنَ الْمَوَالِيَا :
 يَا بَدْرُ أَهْلِكَ يَقُولُوا لَكَ عَلَيَّا جُورُ
 وَعَلَمُوكَ التَّجَافِي ، يَا بَهِي النُّورِ
 فَلْيَصْنَعُوا مَا أَرَادُوا يَا شَقِيقَ الْخُورِ
 لِأَنَّهُمْ أَهْلُ بَدْرِ ذُنُوبُهُمْ مَغْفُورُ

وَمِنْ أَغْنِيَاتِ الْقَمَرِ ، غَنَى مُحَمَّدُ عَبْدِ الْوَهَّابِ :
 كُلُّنَا نَحِبُ الْقَمَرَ وَالْقَمَرُ بِيَحِبُّ مِيسِنُ
 حَظَّنَا مِنْهُ النَّظَرُ وَالنَّظَرُ رَاحَ يَرْضِي مِينَ
 وَانْشَدَتْ فَيْرُوزُ .
 حَبِيبِي بَدُّهُ الْقَمَرُ وَالْقَمَرُ بَعِيدُ
 وَغَنَتْ أُمُّ كَلْثُومُ :
 هَلَّتْ لِيَالِي الْقَمَرِ نَعَالُ نَهْرٍ مَوَا
 يَحِلِّي مَا بَيْنَنَا السَّمَرُ وَيَطِيبُ حَدِيثُ الْهَوَى
 سِرُّ الْحَيَاةِ

وكذلك رجعت أغانيها الشعبية شدو العشاق للقمر المحبوب ، ففنى
له الملاح وقد وقف بقاربهِ على شط النهر يُحيي قمره بين الصبايا
الملاح :

يسعدُ صباح الحبايبُ دا الهوى أصل العجايب
يا نازلين البحر يملُمْ مستعد ابعث ركائبُ
واجبُ علينا نصبح يا قمر يمين الكواكب

وشدا البدوي في نجوع الصعيد ، بالموال :

يا اللي القمر طلعتكُ والبان فني عودكُ
توعد وتخلف وامتي راح توفي بوعودك
طال البعاد وانكوى القلب بصدودك
ليلي ليلي يا عَيْنُ

وفيما كنا ساهرين مع القمر ، ثَمَلِين بنشوة الطرب ، كان علماء الفِرْنَجَة ساهرين على السعي نحو القمر ، منطلقين من حيث انتهت خطوات سلفِنَا من علماء الإسلام في العصر القيادي للحضارة الإسلامية التي أضاءت للغرب الأوروبي ظلمات عصوره الوسطى ، وقدّمت له مع أجهزة الرصد الفلكي ، ذخيرة من علوم الطبيعة والملاحة والطب والرياضيات والفلك .

“ وغذ الأوروبيون السير ، وتتابعت الخطوات تكتشف المجهول وتنقل من عصر البخار إلى الكهرباء والذرة والإلكترون ، وتقنح البحر بالطائرة ، وتنتصر على المسافات الكونية الشاسعة ، وتطلق القمر الصناعي وترتاد الفضاء .

ونحن حيث نحن ...

لم نعدُ كلمة ابن البلد وقد قال له قائل : الروس يا أخي أطلقوا القمر الصناعي :

فردَّ عليه ، بالنكتة اللاذعة :

— وإيش يعني ؟ لقد جئنا نحن بالقمر على الباب !

وانطلق يرجع أغنية فائزة أحمد :

نـوّر قناديله

يامه القمر عَ الباب

ياممه أرْدَ الباب؟ ولا أنادي له ... يامّه

• • •

ووصلت « أبولو » إلى القمر ،

صاعدة إليه على معارج ممتدة من الحلم الأسطوري باجتياز الجو
على بساط الريح ، إلى رحلة « جاجارين » التاريخية التي ارتادت
غياهب الفضاء وسجلت انتصار الإنسان بالعلم ، على المسافات الشاسعة
بين هذه الأرض ، وأعالي الفضاء ومدار الأجرام العليا في أفلاكها
النائية ...

هذه هي قصة الإنسان والقمر ، بغاية الإيجاز ..
فماذا بعد رحلة الوصول التي بدأ بها عصر جديد لا حدود لآماده
وأبعاده ؟

كانت صدمةً عنيفة لإنسان العصر ، أن يعقُب رحلة الانتصار
قلق جائح يؤرقه بما يثار من لفظ حول موقف الدين من هذا الحدث
الباهر . ويشتد الجدل فيه ، فيكاد يصيب الإنسان منه دوار ، لفرط
حيرته بين ما لا يستغني عنه من إيمان بالدين وإيمان بالعلم .
فهل كُتب عليه بعد ذلك النضال الطويل الظافر ، أن يواجه أزمة
اختيار بين الدين والعلم ؟

وكانت صدمة عنيفة كذلك ، أن تقرن لحظة الانتصار في أفقها
العالي ، بتصاعد رهيب في مآسي القرصنة الاستعمارية وويلات التفرقة
العنصرية والاضطهاد المذهبي .

فماذا يجدي الوصول إلى القمر ، إذا أهدرت إنسانية الإنسان على
هذه الأرض ، أو امتحن بالتمزق بين عقيدته وعقله ، بين إيمانه
وعلمه ؟

إن من حق إنسان هذا العصر الذي وصل إلى القمر ، أن يطمئن
إلى موقف الدين من ذلك الانتصار العظيم :

ومن حقه كذلك ، أن يتطلع إلى حماية أمتِه وشرف إنسانيته ..

• • •

فأما عن موقف الدين ،

فلا علم لي بما في التوراة والإنجيل ، ولكني قد أعلم ما في القرآن
من موقف الدين في ختام رسالاته ..

وقد تكلم ناسٌ باسم الإسلام :

بعضهم وقف بمعزل عن الرحلة العجيبة ، ووضعوا أصابعهم في
آذانهم لا يريدون أن يسمعوا أنباءها ، مُحَوِّلين مستغفرين لعصرنا
جريمته في هذا الاقتحام الجريء لللكوت السماء ...

وآخرون ، من غير علماء الدين ولا التكنولوجيا والفلك : خاضوا
في الحديث عن القرآن والقمر ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ،
فروَّجوا في العامة كلاماً ساذجاً عن سبق وصولنا إلى القمر ، بدعٍ
من التأويل للكلمات الله :

فهناك مفسر عصري أخذ مادة سطح القمر وعلم الجيولوجيا القمرية ،
من « آية يس » :

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »

وأترك لرواد القمر وعلماء الجيولوجيا ما يتعلق بعلمهم من هذا
التأويل ، وأشهد أن الكلمة القرآنية في التفسير العصري ، مبتورة من
سياقها في ثبات السنن الكونية واطراد نظامها المحكم .

وأخرى من بدع التأويلات العلمية ، أخذت سفن القمر وتكنولوجيا الفضاء من آية الانشقاق : « لتركبن طبقاً عن طبق » مبتورة من سياقها في وعيد الكفار بعذاب السعير يوم الحساب :

« فما لهم لا يؤمنون . وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون • بل الدين كفرور يكذبون . والله أعلم بما يععون • فبئسَ لهم بعذاب ألم »

وثالثة قرأناها في إحدى الصحف ، يوم وصول الرواد منتصرين إلى سطح القمر : إن هذه الرحلة الصعبة ، الباسلة الظافرة ، عرفناها نحن منذ أربعة عشر قرناً ، بآية « الرحمن » .

« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

وأترك لكل من له أدنى حظ من عقل ورشد ، رأيه في هذه السذاجة الماسخة للعقل ، وأشهد أن التأويل العصري بتر الآية من سياقها في إحاطة الله بخلقه من إنس وجن ، فليحاول هؤلاء أو أولئك أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض ، فستردهم حمم من العذاب بيقين الخيبة :

« يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس » فلا تنتصرون •
فبأي آلاء ربكما تكذبان »

وفعل الأمر في الآية « فانفذوا » على سبيل التعجيز لمن يحاول الخروج من سلطان الله المحيط بخلقه في السموات والأرض ، والمحاولة

إن كانت . مقضي عليها بالفشل وعدم الانتصار ، بصريح النص :
« فلا تنتصران »

فهل كانت كذلك رحلات الفضاء والقمر ؟

قصارى ما أعلمه أن كتاب الإسلام يهدي إلى موقفه من رحلة
اقتحام الفضاء والوصول إلى القمر ، في نطاق الموقف العام للإنسان
والعلم . وقد سبق الحديث عنه في مبحث « هذا الإنسان » وأزیده
هنا بياناً ، فيما يتعلق برحلة القمر :

الإنسان خليفة في الأرض ، وأي اقتحام لمجاهل الكون تحقيق
لتكليف خلافته فيما سخر الله له من السموات والأرض على الإطلاق
الذي لا يتقيد بأرض دون سماء ، بقمر دون مريخ وزهرة وعطارد ...

« الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج
به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر
بأمره وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ... »
(إبراهيم : ٢٢)

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض
وأَسْبَغَ عليكم نِعَمَهُ ظاهراً وباطناً . ومن الناس من يُجادل في الله
بغيرِ عِلْمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منير »
(لقمان : ٢٠)

« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن
في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون »
(الجاثية : ١٣)

ونرى أنه مع دخول الشمس والقمر في عموم ما سخر الله للناس :
ما في السموات وما في الأرض جميعاً ،

يخص القرآن الشمس والقمر بالذكر في سبع مرات في آيات هذا
التسخير « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » و « يعلمون »
والعقل جوهر الإنسانية الناطقة المفكرة .

وقوله تعالى فيما سخر لنا من الشمس والقمر وسائر ما في السموات
والأرض : « بأمره » هو تدبير النظام الكوني بالسُنن المحكمة والقوانين
الثابتة النافذة ، وسبق القول بأن القرآن الخاتم لرسالات الدين ، قد
أبطل الخصومة بين الدين والعقل .

ومن هذا المنطلق ، نستطيع أن نفهم ونقدر موقف الدين من رحلة
الوصول إلى القمر . وما بعد القمر : يمضي فيها الإنسان إلى أقصى
ما تهيئه له طاقته وتسعف عليه وسائله ، وأن يطمح إلى كشف المجهول
من آفاق الكون وأسرار الحياة ، آمناً من ناحية الدين الذي يبارك هذا
السعي الطامح ، يرسخ الإيمان بعجيب ما يكشف عنه من آيات القدرة
الإلهية في النظام الكوني المحكوم بسُنن ثابتة وقوانين مطردة ، وما يهتدي
إليه الإنسان من نعم لم تكن ظاهرة ، مما سخر لنا في السموات والأرض .

ثم لا يفوتنا من موقف القرآن من رحلة الوصول إلى القمر ، أن نسأل :
هل عطل اكتشاف كثافة مادته ، آيته القرآنية سراجاً منيراً ؟
وهل اختلت دورته بالوصول إليه وتَجول «لوناخود» على سطحه بين
صحوره وفوهات براكينه ؟

كلا ، لم ينسخ جديدُ علمنا بالقمر آيته فينا ، فما يزال وسيبقى
أبداً ساجماً في فلكه ، يتجلى بنوره فيضيء ظلمات الليل للسارين
الضالين والحيارى التأهين . وما تزال البشرية ، وستظل أبداً ، تجدد في
نظام دورته ما يضبط لها سير الزمن بمواقيت لا تختل ولا تتخلف ، ما
بين مولد هلاله وأوج بدره وأفوله في المحاق ...

• • •

إنما نخشى الإنسانية على عطاء القمر من احتكار المستغلين ، بعد أن لبثت من الأزل ، نجد فيه الملاذ من وطأة الاستغلال وبغي الاحتكار ، من حيث ارتفع عالياً بعيداً كل البعد عن أسواق البيع والشراء ، يتدفق نوره فيغمر أكواخ الفقراء وكهوف المشردين ، ممن لم يدع لهم طاغوت الاستغلال قطرة زيت يوقدون بها مصباحاً .

ويرونها أن يحمل طاغوت العصر أوزاره إلى القمر ، من الأرض التي احتملت وطأته على مر الحقب ، ومنحته من أسرارها وكنوزها ونخبها سخي العطاء ، فجعل منها ساحة يعربد عليها الشيطان ، وتُغص بدماء الضحايا والشهداء ، وتراكم فوقها الأنقاض والأشلاء ...

• • •

من مدار القمر ، نقلت أجهزة العصر إلى سكان الأرض ، ما اكتشفت «أبولو» من أسرار ذلك الكوكب البعيد الشاهق .

وعلى الأرض ، خالطتها دمدمة صوت قبيح من قاعدة الانطلاق ، يُصيرُ على أن تكون الرحلة الأولى إلى القمر ، غزواً استعماريّاً يسجل تبعية القمر للغزاة ، ويصمم بها على سطحه ..

وشحذ غول الاستغلال أنيابه لاحتكار ما عساه أن يكون في المستعمرة الجديدة من مجهول الكنوز .

وفُتِحَت الخزان لتكديس ما يتدفق من ثمنِ فاحش لصخور القمر
المعروضة في متاجر الجواهر . وما يدفع هواة السفر إلى القمر من ملايين
الدولارات ، عملة صعبة .

ويتعثر الصنم الأصفر وهو يسترد سلطانه الوثني ، من حيث ظنت
البشرية أنها تحررت من لعنته .

. . .

هكذا يبدأون رحلة الإنسان إلى القمر ، بتشويه وجه الضياء ، بعد أن
فرغوا من تشويه الحياة على الأرض واغتالوا ما تمنح من عطاء .

بل هكذا يمسخون آية العصر ومعجزة العقل الإنساني ، حين آن له أن
ينجي بالعلم ثمار كفاحه الطويل .

بعد أن مسخوا الإنسان نفسه ، وأهدروا آدميته بالرق والاستعباد ،
وساموها ما لا تُسام البهائم والدواب من قهر ومهانة وإذلال ، وإنها
للآدمية التي كرمها خالقها الواحد ، وأمر ملائكته أن يسجدوا لأبيها ،
الإنسان الأول .

ولقد ناضل الإنسان طويلاً في سبيل كرامته ، ضد أعداء البشر وجنود
الشیطان .

وأعطت الأجيال من تصوراتها ورؤاها ، ومن تراثها الحضاري في علم
الفلك ومرصد الكواكب وقوانين الطبيعة ، ما مهد لجيلنا سبيله إلى
القمر ، بعد أن سخر الجو وركب الطائرة واكتشف أسرار الذرة والإلكترون
وتحكم في موجات الأثير وارتاد الفضاء .

هذا الإنسان ، يرفض بعقله المنتصر وضميره الحي وجدانه المرهف ، أن يأتي في آخر الشوط من يستغل ، لحسابه الخاص ، كل رصيد الأجيال من البشرية ويمسح آية القمر ببصمة الاستعمار ، بكل ما يلوّثها من دماء الضحايا ، وما تبوء به من لعنة جيلٍ معاصر ، يؤرخ عُمره بما بين فاجعة هوريشيما ونجازاكي إلى معركة الجزائر وحرب فيتنام والمعركة المحتدمة على مهد الحضارة وأرض الرسالات .

وتروّعه زمجرة الوحوش في الشرق الأقصى وفي أحياء الزنوج وبحر الحنازير والمستعمرات العنصرية في افريقية ، وعواء الذئاب في القدس والخليل والطور وسينا وعلى سفوح الجولان وجرزيم والمكبر ، وضفاف السويس والأردن ...

على الساحة الكبرى من أقصى المشرق إلى أمريكا ، يخوض لإنسان العصر معركته النيلة في سبيل الخلاص من مهانة الاستعباد وطاغوت القرصنة .

ومن الأمم المتحدة ، أذيع نبأ في السادس من نوفمبر سنة ١٩٧١ ، عن : مشروع معاهدة لتدويل القمر والمدار المحيط به وتجرّد منطقته كلها من السلاح ، وحماية بيئتها وتنظيم عمليات استكشافها .

ويقضي المشروع ، وهو مقدّم من الاتحاد السوفييتي ، بعدم تعويق حرية وصول المركبات أو الأشخاص التابعين لدول أخرى ، إلى القمر . كما يقضي «بعدم السماح لأحدٍ بادعاء ملكية القمر»

وأنى لأحدٍ أن يدعي ملكيته ، وما كانت رحلة الوصول الأولى سوى

شوط حاسم من مراحل الكفاح الإنساني في تسخير الظواهر الطبيعية
واكتشاف مجاهل الكون ، وحصاد جهود مضيئة على مر العصور والأجيال ،
لم يشارك فيها «غزاة القمر» إلا في مرحلة قطف الثمار وجني الحصاد ؟

«كلا والقمر • والليل إذا أدبر • والصبح إذا أسفر • لأنها
لإحدى الكبّر • نذيراً للبشر • لمن شاء منكم أن يتقدم أو
يتأخر »

• • •

وبعد فما أدري إذا كان علمنا بكثافة مادة القمر ، وما حمل إلينا
الرواد من ترابه وصخوره . سيُبقي على تعلق وجداننا به ، فيظل
على العهد به من قديم الزمان ، مجمع الأحباب والخللان ، وسفير
المسهردين : ييثونه مواجدهم ومواجههم ، ويشدون له بالقناء ويرون فيه وجه
الحبيب ، ويلتمسون لديه ما يؤنس وحشتهم في محنة هجر أو اغتراب ،
وما يذكرهم بشملٍ اجتمع على نوره في ماضٍ لهم ولى وراح ؟

يا طول ليلنا إن فقدنا هذا العطاء من القمر ! أقولها وفي مسمعى ،
صدى يشجيني من شدي شاعرنا «ابن زيدون» في ربوع الأندلس :

ودّع الصبرَ مُحِبٌ ودّعكَ	ذائعٌ من سِرِّه ما استودعك
يقرع السنَّ علي أن لم يكن	زاد في تلك الخطأ إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً ونى	حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطُل بعدك ليلي فلكم	بتُ أشكو قصرَ الليل معك !

• • •